الدولة في الإسلام
فلسفتها وعقبات أمام قيامها

تأليف
المستشار الدكتور
يوسف محمود صبح
الأستاذ المساعد بكلية الشريعة والقانون
الجامعة الاسلامية بغزة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

ان لمفهوم الدولة فى الاسلام فلسفة خاصة تميزها عن فلسفة الدولة فى الحضارة الغربية هذه الفلسفة قادت العالم حضاريا لمدة ألف عام ٠

وقد استطاع الغرب أن يزحزح المسلمين عن مسرح التاريخ معتمدا فى ذلك على نوعين من المفكرين أولهما المؤرخون وثانيهما خبراء العلوم السياسية ٠

ولم يكن المسلمون فى حاجة الى وضع نظرية أو شرح لتبرير وجود دولتهم فى ذلك الوقت ٠ الا أننا فى هذا البحث المتواضع نتعرض الى فلسفة الدولة الاسلامية لنتخطى الواقع المؤلم الذى تمر به الأمة الاسلامية وتجزأتها الى قوميات ، وكل قومية أنشأت لها دولة خاصة بها على غرار الدولة الأوربية ٠

كما أن هناك عقبات عديدة تقف حائلا أمام قيام الدولة الاسلامية ومن أهم هذه العقبات قيام الدول الاسلامية القومية ، والحركات الاسلامية ذاتها ، واختلافنا ـ كمسلمين ـ فى العقيدة وخروجنا عن رسالة التوحيد المستمدة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ٠

وسوف ندرس فى هذا البحث المتواضع الدولة فى الاسلام من خلال فصلين نتطرق فى الفصل الأول الى (فلسفة الدولة فى الاسلام) وفى الثانى الى (عقبات فى طريق الدولة الاسلامية) ٠

والله ولى التوفيق ،،،

الفصـــل الأول

فلســـفة الدولة فى الاســـلام

ان لمفهوم الدولة فى الاسـلام فلسفة خاصة ، هـذه الفلسفة قادت العـالم حضاريا لمـدة ألف عـام ، وهى تختلف اختـلافا جذريا عن فلسفة الدولة فى الحضـارة الغربية ، والتى بدأت منـذ القرن السـادس عشر فى البروز ولم تحقق انتصـارها الا فى القـرن العشرين ، حين حـقق الغـرب انتصـاره بزحزحـة المسلمين عن مسرح التـاريخ(١) معتمـدين فى ذلك على نوعين من المفكرين أولهما المؤرخـون الذين يعمـدون الى ذكر الاسـلام فى بضع جمـل وحواشى مختصرة فى كتبهم ، وثانيهمـا خبراء العلوم السياسية الذين يبررون بالعقـل السيطرة التى تمكن الغرب من القضـاء على الحضـارة الاسـلامية ، وفى سبيل ذلك استثمروا موارد بشرية ومادية ضخمة لتنفيذ هـذا المخطط الرامى الى تزييف التاريخ ، وتقـديم تصـور علمـانى للانسان ولتطوره التاريخى . فقـد استعانوا بالدراسـات الاستشراقية التى أسست خصيصا للتوغل الى أعماق مـا تبقى من الجسـد الاسـلامى ولنخره من الداخل وانضم المبشرون كذلك الى هـذه الخطـة وأحرزوا مكتسبات ضخمة للكنيسة(٢) .

واذا كانت جـذور العلوم السياسية الغربية قد استفادت من علمـاء

---

(١) جريدة الأوبزرفر اللندنية ١٩ ديسمبر عام ١٩٧٦ .

(٢) يعترف المسيحيون الآن أن كثير من المبشرين ظلوا يخدمون مصـالح الغرب الاستعمارية . انظر بيـان الدعوة الاسـلامية ـ شـامبيس يونيـه ١٩٧٦ والمنشور فى مجلة امباكت اللندنية صفحة ١٢ ـ ٢٥ نوفمبر ١٩٧٦ .

المسلمين فىعصر الانتقال من عصور الظلام الى عصر النهضة(٣) الا أن الغرب يتنكر لذلك وينسب الفضل الى فلاسفة اليونان وهو شديد الحذر من أى اختلاط بالمسلمين أو الاسلام مدعيا ارتباطه المباشر باليونانيين القدماء ، مرورا بكنيسة العصور الوسطى وأوربا الاقطاع الى أوربا القوميات فى نهاية الأمر والسؤال المطروح الآن : اذا كان لكل حضارة فكر سياسى ، فما هو الفكر السياسى الذى واكب حضارة ألف عام للمسلمين ؟ ان الرد على هذا السؤال بسيط ومعقد فى نفس الوقت ان القوة السياسية والقيادية لم تكن من الأمور الجديدة والمدهشة للمسلمين بصفة عامة وللمثقفين بصفة خاصة .

كما لم تكن قوة المسلمين السياسية لتحتاج الى تبرير . وكان عامة المسلمين ومفكروهم يعرفون أن السلطة السياسية من أساسيات الاسلام الجوهرية .

ولم يكونوا ليتصوروا لحظة واحدة ، أن يصبح الاسلام أو يصبحوا هم خارج دائرة النظام السياسى ، والحقيقة أن سنة رسول الله ﷺ تطلبت منهم أن يقيموا نظاما سياسيا ، لأنه لا يمكن فهم الاسلام أو ممارسته بدون وجود مثل هذا النظام .

ولم يكن المسلمون فى حاجة الى وضع نظرية أو شرح لتبرير وجود ذلك النظام فالسلطة السياسية كانت باقية وتوسيع رقعة الدولة الاسلامية استمر ، والدفاع عن الدولة الاسلامية والمسلمين فى عقيدتهم ، لذلك لم يبال المسلمون كثيرا بتحول منصب الخلافة الى حكم وراثى وبالتالى الى ملكى ، فالحاكم كان لا يزال يسمى نفسه خليفة ، بالرغم من أنه لم يعد يمثل ذلك الحاكم المتفانى العادل الذى عرفه صدر الاسلام ، فكان الحاكم حتى عصور متأخرة يحوز على الاعتراف والطاعة باعتبارهم

---

(٣) راجع رسالتنا فى الرأى العام وأثره على طريقة وضع الدساتير.

أميرا للمؤمنين . وبصفته رئيسا للدولة الاسلامية فرئاسته عامة فى الدين والدنيا ، قوامها النظر فى المصالح وتدبير شئون الأمة ، وحراسة الدين ، وسياسة الدنيا . وهى ضرب من الملك خاص بالاسلام لم يكن فى سواه من قبل ، وهى من قبيل السلطة الشاملة فتحمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى ، فى مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة اليها . وهى مقيدة بقوانين دينية شرعية ، يسوس الخليفة بها أمته الاسلامية ، ويحمل الناس على أحكامها بالنيابة عن رسول الله ﷺ ان هذا الوضع فى الاسلام يغاير تماما فكرة الفصل بين الكنيسة والدولة تلك الفكرة التى سادت الفكر السياسى الغربى وتطوره . ان المسيحيين الأوائل كانوا فى اطار نظامى رهبانى وليس فى اطار نظام سياسى أو عسكرى أو مدنى لقد كانوا يطيعون السلطة الرومانية فى كل الأمور تقريبا ، وفى نهاية الأمر حدثت المواجهة بين الكنيسة والدولة حول الحدود الفاصلة بين ما هو دنيوى وما هو دينى . أما الاسلام ، فعلى العكس من هذا ، بدأ يتحدى السلطة الرائجة فى ذلك الوقت وقام بانشاء أنظمة مستقلة مدنية وعسكرية وادارية ، وقام بالقاء الهزيمة بمعارضيه ، وبارساء سيادة النظام الاسلامى بصورة لا تقبل المنازعة .

وقد تحقق هذا كله فى حياة الرسول ﷺ . وعليه فالأمور الدينية والدنيوية لا تمثلان مجالين منفصلين فى الاسلام ، ان الحقيقة فى الاسلام واحدة لا تتجزأ ، تلك الحقيقة التى تتحول الى حقيقتين بمنظار كل من الكنيسة والدولة المتباعدتين .

ان خلاصة فكرة التوحيد فى الاسلام هى المساواة والتضامن والحرية وأن الدولة فى المنظور الاسلامى ، هى بذل الجهد لتحويل هذه المبادىء المثالية الى حقائق فى منظور الزمان والمكان وهى

الأمل لتحقيق تلك المبادىء فى اطار تنظيم بشرى محدد(٤) .

مما تقدم يتضح لنا أن فكرة الدولة فى الاسلام مختلفة ، وبصورة أساسية ، عن فكرة الدولة القومية الحديثة ، ان هذين النوعين ليسا شيئا واحدا . وليس هناك من رابط مشترك يربط بينهما . حيث أن الاسلام يقيم دولته كأداة للهدف الالهى . نجد أن الدولة القومية تنشأ فى أساسها لهدف مغاير تماما . وهو استبعاد الله واحلال المصالح القومية مكانه . تلك المصالح التى يقررها ويغيرها العقل البشرى . وعليه فان الهدف الأعلى للدولة القومية لا يعترف بأية قيم أخلاقية ، اللهم الا القيم الدنيوية المحضة ، ومثل هذه القيم لا تتمتع بالدوا م والثبات مثلما هى عارية من القبول العالمى ، فهى تختلف من دولة قومية الى أخرى . بل ان دولة قومية واحدة تستخدم قيما مختلفة فى الأحوال المختلفة ، وفقا لمقتضيات المصلحة القومية فى كل حالة على حدة . وليس من المدهش ، والحالة هذه أن نجد أن العلاقات الدولية بين مختلف الدول القومية هى فى حقيقتها صراع لأجل القوة والنفوذ ، عن طريق استخدام القوة ، ولأجل المزيد من القوة(٥) .

ولقد قيل الكثير حول الوضع الحالى للمناطق الاسلامية فى العالم المعاصر . لكن الحقيقة هى أن العالم الاسلامى مجزء الى قوميات وكل قومية ، أنشأت لها دولة خاصة بها على غرار الدول الأوربية ما عدا المناطق التى لاتزال ترزح تحث نير الاحتلال أو الحكم الاستعمارى . ان الدولة القومية المسلمة لا تختلف جوهريا عن

---

(4) Muhammad Iqbal, The Reconstruction of Religious Thought in Islam, Lahore, Ashraf, 1971, p. 154.

(5) H. J. Morgenthou, Politics Among Nations, N.Y. Knopf 1948,

الدول القومية الأخرى . ان دولنا بنفس الأسلوب تماما مسلمة بأفرادها المواطنين ، ولكنها غير مسلمة ببنيتها السياسية القائمة على أساس الدولة القومية اللا اسلامية . ان القومية الاقليمية هى بعينها نقيض الاسلام ، ولذلك يجب علينا أن نواجه الموقف ونعترف بالحقيقة التى لا سبيل الى الجحود بها . وهى أنه لا وجود اليوم لتجسد سياسى للاسلام . بل ان فترتنا هذا لا تزال استمرارا لفترة الاستعمار الأوربى . وذلك لأن السكان المسلمين لا يزالون منقسمين الى مواطنى دول قومية - فبدلا من أن تحكمنا أوربا بصورة مباشرة - فان الحكم لا يزال بأيدى المؤسسات التى أقاممها الأوربيون وتديرها النخبة المسلمة المحلية التى تشارك أوربا نظرتها العلمانية الدنيوية تجاه العالم والحياة . وهذا هو السبب فى اننا نستطيع أن نقول بدون أدنى مبالغة اننا أوربيون وأننا لا نزال خاضعين لنوع من الاستعمار الغربى ، وهو جزء من الاقتصاد العالمى الرأسمالى . اننا الآن أسرى مستقلون للحضارة الغربية . كل هذا يحدث الآن ويراه كل من يريد أن يرى ويتأمل . ومع ذلك فان الدول الاسلامية المختلفة لا ترى منه شيئا ، أو انها فى تخلفها الراهن ، ليس لها القدرة البصرية على رؤيته ، أو على دراسته ، أو على ملاحقته ممع أن لديها فى الأحكام الكلية الاسلامية ذخيرة هائلة وزادا كبيرا من روابط الأخوة الاسلامية ، حيث تغلب أخوة الايمان كل رابطة سواها فى نطاق تكوين الدولة الاسلامية . فهذه الدولة التى قامت فى القرآن السابع الميلادى قامت على أساس استهداف وتحقيق المجتمع الفاضل . فهى لا تميز بين القوميات المختلفة ، ولا تفرق بين الأمم المختلفة بسبب الجنسية ، حتى تحقق شرط الاسلام بها . اذ أن صلة الاسلام تسمو على صلة الجنسية ، وتسمو على صلة النسب وتسمو على صلة العشيرة . وذلك لأن هذه الصلات تعد عارية عن الفائدة والاثر . اذا تجردت عن صلة الايمان . والدولة

الاسلامية لا تقوم بداخلها الحدود السياسية أيضا ، لأن المؤمنين أمة واحدة . وقد تشكلت الدولة الاسلامية على هذا الأساس ، فرئاسة الدولة فيها واحدة وهى تسوس شئون الدنيا على أساس انها هى السلطة المركزية التى تباشر وظائفها فى المجتمع الاسلامى كله ، بغض النظر عن تعدد القوميات فيه ، أو اختلاف الأقطار والأقاليم ، أو قيام موانع الطبيعة الجغرافية . ولقد قامت فلسفة الدولة فى الاسلام على أساس أن يكون مجتمع المسلمين هو المجتمع الفاضل الذى تحقق فيه أسس العدالة والمساواة والمعاملة بالمثل والشورى والأخلاق لا بالنسبة للمسلمين وحدهم ، ولكن بالنسبة الى المخالفين فى الدين أيضا . فلقد قامت على علاقة انسانية فى الاسلام على أساس من العدالة واعتبار الناس جميعا سواء ، وأنه لا تفاضل بينهم أمام الأحكام وان كان ثمة تفاضل فى الأعمال وفى الجزاء عليها ، ان خيرا فخير ، وان شرا فشرا ، ونصوص القرآن فى ذلك كثيرة ومتضافرة .

ولعل خير دليل على ذلك قوله تعالى : « **ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى** » وقوله تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم** » وقوله سبحانه : (**ان الله يأمر بالعدل والاحسان**) .

وقد تفرع عن ذلك أن دعا الاسلام الى قانون عادل فى معاملة المسلم لغيره ، سواء أكان مسلما أم غير مسلم ، وسواء كان التعامل بين الأحاد أو بين الجماعات والدول . ان القواعد الكلية الاسلامية هى تتفق مع الضمير الانسانى فى أسمى مستوياته . وهى تشتق قوتها من قواعد السلوك العام فى المجتمع الفاضل الذى يقرر حق كل انسان فى أن يعامل على مقتضى الفضيلة ؛ وعلى أساس الكرامة الانسانية ، ان تحرير الانسان من الخضوع لغير الله خضوعا مطلقا هو الهدف الأكبر

للدولة الاسلامية ، ويشتمل على تحرير الانسانية كلها من أنواع العبودية لغير الله ، لأن من الانحطاط بالانسان وكرامته أن يجعل عبدا لانسان آخر أو لفئة من البشر ، أو لجزء من الطبيعة حيوانا كان أم كوكبا ، ولأى معنى من المعانى التى يخترعها الانسان ثم يكون عبدا لها وهذا هو الشرك الذى يحاربه الاسلام ويسعى لازالته تحريرا للانسان ، وهو هدف أساسى من أهداف دولته (٦) .

وعلى الرغم من أن الاخوة الدينية بين المسلمين صلة روحية ، تشتمل على وحدة العقيدة الدينية الا أن علماء المسلمين فى عصور الاسلام الأولى ، قد اعتبروها المعيار الحاسم فى تكوين الدولة الاسلامية والضابط الحتمى الذى يفصل بينها وبين غيرها من المجتمعات الانسانية التى تدين بغير الاسلا م، فالدولة الاسلامية فى تكوينها دولة متحدة ، على أساس أن حكم الاسلام يسودها ، وأن ولايته الشخصية تمتد الى الأمصار التى يحيا على أقاليمها البشر الذين تربط بينهم الأخوة الدينية الاسلامية ، وهى ولا شك تعد أول مثال للدولة المتحدة أو الدولة الفيدرالية التى ظهرت أول صورة لها منذ قرنين فقط فى العالم غير الاسلامى ، وهى الولايات المتحدة الأمريكية ، مع وجود الفارق بين الشكلين شكل الدولة الاسلامية وشكل الولايات المتحدة الأمريكية ، فى الأساس التكوينى لهيكلهيما .

فالدولة الاسلامية تقوم على أساس روحى هو الاخوة الدينية الاسلامية ، والدولة الأمريكية تقوم على أساس قانونى هو دستور الولايات المتحدة الأمريكية ، والدولة الاسلامية تستهدف اقامة المجتمع الفاضل الذى تحكمه القواعد الكلية الاسلامية ، فى حين أن مثل هذا

---

(٦) نظام الاسلام : الحكم والدولة ، محمد المبارك ، دار الفكر ، ص ٢٢ .

الهدف غير قائم فى نظـام الدولة الاتحادية المعاصرة التى لا تقـوم على أسـاس الصـلة الروحيـة الدينيـة (٧) ٠

زد على ذلك أن الدولة الاسـلامية مقيدة باتخاذ القـرآن دستورا لهـا ومـلزمة بالنزول على أحـكامه التى لا تقبـل تبديلا ولاتـ عـديلا ولا تعطيلا ، فهى بذلك ليست من نوع الحكومات المقيدة المطلقة من كل قيد ، كما أنهـا ليست من نـوع الحكومات القانونية ، لأن الحكومات القانونية تخضـع لقوانين وأنظمـة يضعها البشـر وهم متأثرون بأهوائهم وشهواتهم ، والقـوانين والأنظمـة التى يضعهـا البشـر قابلة للتبديل والتعـديل والالغـاء اذا ما قضت بذلك أهـواء البشـر وشهوتهم ٠ أما أحـكام القـرآن فهى من عند الله ، وهى خالدة الى الأبد لا تماشى أهواء الحكام ولا أهواء المحكومين ، وانما تعدل بين الفـريقين وتوفى كلا حقه فى حـدود العـدل الخالص مع حفظ مصلحة الجماعة ، « **ثم جعلنـاك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون** »(٨) ٠

« **يا داود انا جعلنـاك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ، ولا تتبـع الهـوى فيضلك عن سبيـل الله** »(٩) ٠

ان تراكمات القرنين المـاضيين فى تاريخنا كمسلمين ، أفقدتنا القدرة على السيطرة السياسية ، كما فقدنا القـدرة العقلية لادراك العـالم من حولنا ، لقد أصبنا بفجـوة فى تجـربتنا لصنع التاريخ ، وكذلك أصبنا بفجـو فى معرفتنا ، فلو قدر للحضـارة الاسـلامية أن تستمر فى دورها

---

(٧) القانون الدولى فى الشريعة الاسلامية : الدكتور حامد سلطان ، المرجع السابق ، ص ١٥٧ ٠

(٨) سـورة الجـاثية آية : ١٨ ٠

(٩) سـورة ص آية : ٢٧ ٠

المهيمن ، خلال القرنين الماضيين ، لكنا قد وضعنا علومنا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وغيرها من العلوم المتطورة . أليس علماء المسلمين من أمثال ابن رشد والامام الغزالى وابن تيمية وابن خلدون وغيرهم فى جميع العلوم والفنون والآداب قاموا بأعمال رائدة فى هذه المجالات العلمية ، لقد قام الغرب فى غيابنا عن التاريخ بوضع علم الاقتصاد ، وذلك لتبرير السلوك الاقتصادى الغربى وجعله معقولا وتحويله الى علم عميق صعب الفهم . كما أفرز الغرب من جعبته العلوم السياسية . هذا العلم لم يكن له وجود قبل قرن واحد من الآن . وحتى منذ خمسين سنة لم يكن هذا العلم له وجود فى أى جامعة من جامعات أوربا وأمريكا ، لكن الغرب أوجد له المتخصصين وأغدق عليهم من الأموال لكى يقدموا النظرية التى تبرر النظام الذى يعتنقه - واستمدوا أصوله من أفكار أفلاطون ، وأرسطو ، وأوغسطين ، وأكويناس، ومكيافيللى ، ودانتى ، وهوبز ، ولوك ، وروسو ، وبنتام ، وماركس ، وجون ستيوارت مل ، ثم تأتى أوصاف الدولة العظيمة المعاصرة كالولايات المتحدة الأمريكية ، وبريطانيا العظمى ، وفرنسا ، وألمانيا ، والاتحاد السوفيتى وعدة دول أخرى ، وأخيرا تأتى المكتبة المعاصرة الزاخرة التى وضعت لتكريس المفاهيم التحليلية (١٠) .

وما قدمناه عن علم الاقتصاد الغربى والعلوم السياسية الغربية ينطبق على سائر الفروع المعرفية الغربية ، ولقد جرت أمتنا الاسلامية لاهثة وراء دروب المعرفة الغربية ، لتحل بها مشاكل مجتمعنا الاسلامى ، الا أننا فشلنا فى ذلك والسبب يعود الى أن هذه النماذج نمت وترعرعت فى ظل الحضارة الغربية عنا وفى مجتمع

---

(10) W. J. M. Mackenzie, Politics and Social Science, London, Pelican 1967, p. 57.

وثقافة غربيين ووسط اناس غـرباء . بل لازلنـا مكبلين بقيـود الدول الاسـلامية القومية ، فى الوقت الذى أصبح فيـه نجم الدولة القومية فى الأفول ، كنتيجة حتمية لازدياد العـلاقات بين التجمعات الانسـانية ، ورسوخ المشـاعر بوجود الترابط والتكافل بينهـا ، واستقلال الشعوب التى كانت مستعمرة أو خاضعـة فى المـاضى ، والتقدم السريع الحاسم فى شئون المواصلات ، وأساليب الاتصـال فى ميادين الثقافة والأفكار ، وفى شئـون الانتـاج ، وفى شئون الاقتصـاد ، وفى شئون الصناعة ، والتطـور الثـورى فى صناعة الأسلحة وفى غـزو الفضـاء ، كل ذلك وغيره من الأسباب يدعو الأمم والشعوب الى اجتيـاز مرحلة التجمـع فى شـكل الدولة ، الى مرحـلة أخـرى من مراحل التجمـع تكون أوسـع نطاقا وأكثر قـدرة ، وأقـوى دفاعا وقناعة من تجمـع الدول كما هو قائم الآن . ولا شـك أيضـا أن الصـراع العقـائدى الذى يدور الآن فى أرجـاء المعمـورة بين المذاهب السياسية والاجتماعية والاقتصادية المختلفة يؤدى بطبيعتـه الى انقسـام شعـوب المعمـورة وأممها الى معسكرات مختلفة يعادى بعضها بعضا . لذلك نما الادراك لدى بعض الشعوب والأمم بوجـوب التجمـع فى صـور تغـاير صـور الدولة بعناصرها التكوينية الحالية ، وبوجوب التعـديل فى عنصـر السيادة الذاتية ، وقامت فى السنوات القليـلة المـاضية ، جهـود ترمى الى زيادة رقعة التجمـع ، والعمـل على توحيد الشعوب فى شـكل آخـر غير شكم الدولة . وقد ترتب على هذه الجهود تقدم محسوس نحو تحقيق هـذا الهدف . على أن هـذا التقدم يبدو أكثر وضوحا فى أوربا عنه فى غيرها من القارات . ففى أوربا قامت بالفعـل تجمعات لا يمكن أن تخفى مغزاها ولعـل أهمها فى الوقت الحاضر ، قيـام السوق الأوربية المشتركة والتى يدور الحوار

فى داخل دول السوق الى دعم الوحدة الاقتصادية بالوحدة السياسية (١١) ٠ لكى تبدو أوربا فى شكل قوة اقتصادية وعسكرية وسياسية تقوم بدور حاسم فى تكافؤ موازين القوى بين كتلة الدول الشيوعية وكتلة الدول غير الشيوعية ، وعلى الأخص فى ميدان الصراع النووى ٠ كذلك قامت تجمعات بين دول أمريكا فى (بونت دل أست) تهدف الى اقامة تعاون فعال فيما بينها فى ميدان الاقتصاد والسياسة ٠ والتجمع الواسع قائم أيضا بين دول الكتلة الشرقية على مستوى الدولة ٠ أما الدول الاسلامية فلا تزال متخلفة عن ميدان التوحيد الاقتصادى وميدان الوحدة السياسية نتيجة للجهود التى يبذلها الاستعمار الاقتصادى الجديد ٠ ولتخلف الدول الاسلامية عن النظر فى الفكرة الأصلية التى قامت على أساسها الدولة الاسلامية ٠ أن من الجهل القول بأن الدين الاسلامى يدعو الناس فقط ليعملوا لآخرتهم ، بل انه يدعوهم للعمل لدنياهم قبل آخرتهم بل انه يرتب الحياة الأخرى على ما يعمله المرء فى حياته الدنيا ٠ فهو دنيا قبل أن يكون دينا ، وهو أولى قبل أن يكون آخرة ، واذا كان الاسلام قد حد للناس حدودا لا يتعدونها ، ووضع لهم أحكاما ألزمهم اتباعها فانه لم يسلبهم حريتهم فى العمل ، ولم يملك عليهم كل أمرهم ، بل ترك لهم أن يفكروا فى أنفسهم وأن يدبروا حياتهم وأن يعملوا بوسائلهم ، وترك لهم أن ينظموا أنفسهم وأن يراعوا مصالحهم الخاصة والعامة ، وأن يعدوا لمستقبلهم ما يشاءون من الخطط التى تؤدى الى رقيهم واسعادهم وتفوقهم ٠

ونستطيع أن نقول فى غير تجوز : ان الاسلام ترك للبشر الحرية الكاملة فيما يأخذون وما يدعون ، ولم يقيدهم الا بأن تكون حياتهم قائمة

---

(١١) راجع فى ذلك محاضرات الدكتور حسين خلاف عن التكامل الاقتصادى التى ألقاها على طلبة الدراسات العليا فى كلية الحقوق بجامعة القاهرة ، سنة ١٩٧٧ م ٠

على الفضائل حتى يحيوا حياة فاضلة تسودها العدالة والمساواة والحب والتضامن وغير ذلك من المبادىء الانسانية العليا التى جاء بها الاسلام والتى يدعى العالم كله أنه يعمل لتحقيقها ولن يستطيع أن يحققها بعد أن انسلخ عن الدين واتبع الأهواء والشهوات ، تلك المبادىء التى يتطلع العالم اليها ويعلم أن صلاحه يتوقف عليها ، تلك المبادىء التى نسميها انسانية وما عرفها أهل الأرض الا عن طريق السماء ورسالات الأنبياء(١٢) . فهل نتعظ كمسلمين وكدول اسلامية ونعمل على بناء الدولة الاسلامية التى أرادها الله لنا .

* * *

(١٢) راجع الأستاذ عبد القادر عودة ، المال والحكم فى الاسلام ، المرجع السابق .

الفصـــل الثـانى

عقبـات عن طـريق دولة الاسـلام

ان من أول هذه العقبات وأهمهـا التى تعترض قيـام الدولة فى الاسـلام ، كما أرادها الله سبحانه وتعـالى لاستخلاف المسلمين فى الحكم تعـود الى قيـام الدول الاسلامية القومية ، والتى يربو عددها اليوم على اثنين وأربعين دولة ، والتى كانت خاضعة للاستعمار الأجنبى بأشـكاله المختلفة حتى نهاية القرن التاسع عشر الميلادى ، ولقد تحررت منه شكليا وبالأسلوب والطريقة التى حددها الاستعمار الغربى لهذه الدول . فكل منها الآن يستقل باقليمه وشعبه ، وسيادته وجنسيته ولغته وغير ذلك من خصائص الدولة المستقلة . ولا تجمع بينها تلك الروابط الاسلامية القائمة على وحدة الدولة الاسـلامية .

وهى تختلف من حيث نظم الحكم . ذلك أن بعضها دول ملكية ، وبعضها الآخـر يتبع النظام الجمهورى ، ولبعضها الآخـر مجالس ثورية ، كما تختلف فى أشـكال الحـكم فيهـا ، فبعض هـذه النظم تعـد نظما مطلقـة ، وبعضها يعـد نظما دكتاتورية وبعضها نظما رياسية ، وبعضها نظمـا دستورية برلمانيـة ، أو دستورية غير برلمانيـة ، وتختلف كذلك فى سياساتها ، وتكتلاتهـا ، ولا توجـد ثمـة رابطة خاصـة تربـط بينها بل ان بعضها قـد قطع علاقاته الدبلوماسية مع البعض الآخر ، وبعضها يحـارب البعض الآخـر بشراسـة وبأساليب غير انسانية . وان تعاونها مع بعضها البعض لا يعـدو عن كونه تعـاون قائم بين دول مستقلة ذات سـيادة بصـفة عـامة . وهى لا تختلف جوهـريا عن كل الدول القوميـة الأخـرى . بل لا تتبادل المنـافع الاقتصادية بينها ، بل اننـا نجـد داخل هـذه الدول من المسلمين يموتون جـوعا ، وفى الوقت نفسـه نجـد دولا

أخـر لا تعـرف مصرفا لأموالهـا ، الا الايداع فى المصـارف الأجنبيـة بالرغم من مخـاطر ضـياعها ٠

وازاء هـذا الوضـع المظلم التى تمـر به أمتنـا الاسـلامية ، حيث تواجه تحـديا خطيرا ، علينـا ـ بادىء ذى بدء ـ أن نكشف للمسلمين عـامة ، عن الطبيعة الحقيقيـة لمفهوم الدول القومية وبنيتها ووظائفها، وأنها لا تستطيع أن تحـل أيا من المشكلات التى تواجهها الأمـة الاسلامية ولكن لا ينبغى أن تشجع فى الوقت الراهن انهيار الدولة القومية الاسلامية خشية أن يترك ذلك فراغـا يؤدى الى عـدم الاستقرار والفـوضى ٠ بل علينـا أن نكون مستعدين من خـلال استراتيجية شـاملة لهـذا التغيير ، ولابد للمفكرين المسلمين السياسيين من اقتصاديين واجتماعيين أن يقدموا لجماهير المسلمين صـورة المستقبل المطلوب من خـلال صـياغة مجموعة جـديدة من نمـاذج الأنظمـة السياسية والاجتماعيـة والاقتصادية ، ولابد أن تكون هـذه النماذج جـذابة ومقنعـة منطقيـا ٠ حتى ينطلق جيـل من المسلمين بأكمله يجـاهد لتحقيقها واظهـارها الى حيز الوجود ٠

على أن تكون هـذه النماذج فى نطـاق الأحكام والمبادىء الكلية فى الاسـم وعلى هـدى الاجتهاد القـائم على أسـاس أن الاسـلام يجب أن يظـل دن العقل الرشـيد ، والدين الذى يصـلح لكل زمـان ومكان، والدين الذى يعمـل حسـابا للضرورات الاجتماعية المتغيرة ٠ ولقـد قال الشهرستانى فى الملل والنحـل مـا يلى (نعلم قطعـا ويقينا أن الحوادث والوقائع فى العبادات والتصرفات ، ممـا لا يقبـل الحصر والعـد ، ونعلم قطعـا أنه لم يرد فى كل حادثة نص ، ولا يتصـور هـذا أيضـا٠ والنصوص اذا كانت متنـاهية والوقائع غير متناهية ٠ ومالا يتنـاهى لا يضبطه مـا يتنـاهى ٠ علم قطعـا أن الاجتهاد والقياس واجب الاعتبار حتى يكون مصـدر ك لـادثة اجتهـادا(١٣) ٠

---

(١٣) الشهرستانى : الملل والنحل ، جزء أول ص ٣٤٦ ٠

لقد اجتهد الكثير من علماء السياسة المسلمين بالكتابة حول القضايا الشعبية الحديثة مثل نظرية الاسلام السياسية والدولة الاسلامية .

ولقد حاول هؤلاء المفكرون أن يصوغوا الاسلام فى اطار العلوم السياسية الغربية . وأن يثبتوا أن الاسلام نظام كامل ولكنهم لم يكشفوا عن مهية النظام نفسه ، ولم يشيروا الى الأسلوب الذى يمكن باستخدامه من الوصول الى دولة الاسلام بصورتها الكاملة الشاملة كحضارة حية نابضة ، تحل مشكلات البشرية وتقودها على الطريق المؤدية الى رضى الله . كما قادت البشرية من غياهب العصور المظلمة وحضرت العالم وهذبته . ان من واجبنا كمسلمين وكدول قومية اسلامية أن نقف ونراجع حساباتنا ونحاول أن نفك قيودنا ونضع أنفسنا على طريق القيادة الصحيحة ونتخلص من الحضارة الغربية التى تسلطت علينا وناصبتنا العداء ووصلت بنا الى درجة من الانحطاط حتى أصبحت جميع أنظمتنا الاجتماعية والسياسية والاقتصادية هى من نتاج عصور تخلفنا وتسلط القوى الغربية علينا . ومن واجبنا أن لا نوجه اللوم فى حالنا هذا الى بعضنا البعض كمسلمين ونخلق الصراعات فما بيننا ، لأن الكابوس الجاثم على صدرنا ليس وليد الساعة . بل هو نتاج جملة من الأخطاء التى تراكمت عبر مئات السنين من جراء التخبطات العشوائية التى مارسها أسلافنا فى القرون الأخيرة الماضية . ولذلك ليس من مسئوليتنا ولا بامكاننا ، أن نحاول الخروج من هذا المأزق التاريخى بقفزة واحدة . ان أقصى ما نستطيع القيام به هو أن ننشىء منصة قوية لتنطلق منها أجيالنا القادمة نحو نور الله باقامة دولة الاسلام كما أرادها الله لنا وكما بينا فلسفتها فى هذا البحث المتواضع .

بغزة والجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة وغيرها . كذلك جماعات الشباب المسلم المنتشرة فى مختلف الدول مثل جمعيات الشبان المسلمين،

أمـا العقبـة الثانيـة التى تواجـه قيـام الدولة فى الاسلام فتعود الى الحركة الاسلامية ذاتهـا ، هـذه الحركة التى تتكون من عـدد كبير من التنظيمات الفرعيـة التى تتواجـد فى جميـع أنحـاء العالم . فمن ناحيـة الحجم تبتـدىء هـذه التنظيمات الفرعيـة من الدول القوميـة الاسلامية وحكواتها حتى نصل الى المجموعات الشعبية الصغيرة المجاورة فى المسـاجد المحليـة أو المدارس أو الجامعـات والمعاهد العليـا كذلك توجـد المؤسسات الاسـلامية مثل الأمانة الاسـلامية ، ورابطة العـالم الاسـلامى ، والمصرف الاسلامى للتنميـة ، كما توجـد الأحزاب السياسية الاسـلامية مثل جماعـة الاخوان المسلمين والجماعة الاسلامية فى باكستان ومراكز الدراسات الاسـلامية مثـل جامعـة الأزهر والجامعة الاسـلامية وحركة الشبا بالمسـلم فى جنوب أفريقيـا ، فاذا كانت الحركة الاسلامية تعـد بمثابة نظـام سـلوكى ، فان هـذا النظام السلوكى يجب أن يكون لديه أهـداف ومبادىء لتنظيم سلوكه وسـلوك أعضائه وأن يكون لديه القـدرة على مقـاومة الضغوط من بيئتـه المحيطة به . وعليـه يجب أن يكون النظـام السلوكى منظمـا للغاية ومتكيفـا مع بيئتـه حتى يستحيل على الآخرين أن يقاوموا قيمـه ومعاييره السلوكية . وقـد تحقق ذلك لعـدة قـرون من دعـوة الاسلام ، لأن الحركة الاسـلامية فى ذلك الوقت كانت تتفق من الناحيـة السلوكية مع مبادىء الاسـلام وقيمـه ومعتقداته وقـد أدى ذلك الى أن تكون الحركة الاسلامية فعـالة ، وحـركة تحقق أهـدافها ، وحركة تحررية ومتسامحة ، وحـركة رحيمة وشفيقة وحـركة خاشـعة الى الله ، لقـد كان سـلوك الحركة الاسلامية وسـلوك أعضائها جذابا للغـاية حتى أن معظم الشعوب والأفـراد الذين اتصـلوا بهـا قد اعتنقـوا مصـدرها السلوكى وهو الاسلام . والدليل على ذلك أن الاسلام موجـود ومنتشر فى أرجـاء كثيرة من العالم لم يفتحها المسلمون قط .

كما أنه انتشر فى كثير من الدول انتشارا منفصلا عن الانتصارات الحربية الاسلامية فقد إنتشر الاسلام بين الشعوب المسيحية فى آسيا الغربية ، كما انتشر بين مسيحى أفريقيا ، وبين مسيحى أسبانيا . وانتشر فى فارس وأواسط آسيا .

وانتشر الاسلام بين المغول والتتار ، وانتشر فى الهند ، وانتشر فى الصين فى عهد دولة منج ، وفى عهد دولة منشو ، وانتشر فى أرخبيل الملايو فى جاوه وفى سوماطره وفى بورنيو وفى سيليبس وانتشر فى الفلبين ، وانتشر فى الصرب ، وانتشر فى الجبل الأسود ، وانتشر فى روسيا وانتشر بين تتار سيبريا . ومن الامور الظاهرة أن دعاة الاسلام لم يدخلوا بعض هذه الدول فاتحين(١٤) .

أما اليوم فالحركة الاسلامية لاتزال نظاما سلوكيا ولايزال الاسلام هو المعيار الأسمى لسلوكها .

ولكن أساليب اتخاذ القرارات ومراكزها قد أصبحت غير مقيدة على الاطلاق . لدرجة أن أجزاء التنظيم المختلفة تصل الى قرارات متباينة ، وتبدى أنماطا للسلوك واسعة الاختلاف بل ومتعارضة فى واقع الأمر . وكل هذه الأنماط السلوكية الواسعة النطاق تبرر باسم الاسلام . فمثلا الرأسمالى قد أعاد تفسير تحريم الربا حتى يستمر فى قبول النسب الثابتة من الفائدة على أمواله القابلة للقرض . وقد قام الاشتراكى باعادة تفسير الاسلام حتى انه قد اعتبر القرآن الكتاب الأول فى الاشتراكية . وقد أصبحت أنواع متباينة من السلوك اجتماعى والاقتصادى ، والسياسى ، وحتى الشخصى ، توصف بأنها اسلامية .

---

(١٤) راجع فى هذا الشأن كتاب المستشرق توماس أرنولد ، وعنوانه (الدعوة الى الاسلام) ، ترجمة الدكتور حسن ابراهيم حسن وعبد المجيد عابدين ، القاهرة ١٩٥٧ .

أن نتائج هذا التباين السلوكى فى الحركة الاسلامية واضحة تماما لدرجة أن الكثير من الأفراد المسلمين فى سلوكهم ، وعاداتهم ، وأخلاقهم ومعيشتهم ، وممارساتهم لمهنهم ومنفعتهم ، قليلا ما يختلفون عن معاصريهم من غير المسلمين . وأنه من الواضح أن الذى حدث هو أن القيم والمعايير السلوكية المنتمية الى نظام أخلاقى وأسلوب معيشة مختلف أساسا ، قد تسربت الى الحركة الاسلامية(١٥) .

فجميع العلوم الاجتماعية الغربية تعكس نظما اجتماعية غربية وليست لها علاقة أو صلة ما بالمسلمين ، أو بالاسلام . ولو أننا اعتنقنا العلوم الاجتماعية الغربية وقمنا بتطبيقها فاننا نكون غير جادين فى انتمائنا للاسلام . ان الأولوية الأولى للحركة الاسلامية يجب أن تكون لتطوير نظام متكامل لفروع المعرفة الأكاديمية ، من علوم الاقتصاد والسياسة والاجتماع ولاعداد المخططات العملية البديلة الصالحة لحضارة المستقبل الاسلامية . ان غياب هذه الفروع المعرفية عن اطار العلوم الاسلامية هو السبب الأساسى فى هذه الفجوة ، التى لا تزداد الا اتساعا بين التزام المسلمين بعقيدة الاسلام ، وبين تكريمهم العقلى والعملى والفعلى لأنظمة اجتماعية ، اقتصادية وسياسية نابعة عن أصول غريبة عن الاسلام ، فالذى يلاحظ الآن فى سلوك المسلمين هو أن اعتقادهم بسمو تعاليم الاسلام لا يكون مقرونا بالسلوك والممارسة الفعلية ، وذلك لأن اعتقادهم لم يتعزز بالايمان الراسخ الواعى بسمو ما يعتقدون فيه ، لأن العقيدة فى الاسلام هى الايمان والايمان يدفع النفس المؤمنة الى السلوك وهذا السلوك هو طريق المؤمن الى الشريعة والشريعة هى العمل الصالح والعمل الصالح هو

---

(15) Kalim Siddiqui, Towards a New Destiny, London, News and Media 1974.

كل ما يصلح شأن الأمة فى الدنيا من الاعداد والاستعداد فى جميع مجالات الحياة .

ان الحركة الاسلامية العالمية النطاق ، هى وتنظيماتها الفرعية، تحتاج الى ارساء تقاليد عقلانية جديدة فى الفكر ، ووضع خطط عملية ، وتحديد أهداف حضارية بنوعيها القصير والطويل الأمد .

وحالما يتم تطور هذا الاطار المطلوب ، فانه سوف يشكل شبكة معلومات توحد الحركة الاسلامية فى اتحاد متماسك قوى يجمعها الهد فالواحد ، لاقامة دولة الاسلام كما أرادها الله أن تكون ، والتى ستصبح غير قابلة للتحدى أو الهزيمة . ان غرس الايمان فى نفوس المسلمين بالأسلوب الذى أشرنا اليه فى الباب الأول من هذا البحث سيدفعهم تلقائيا الى تكريس أفضل مواردهم لبعث الحضارة الاسلامية فى صورة أنظمة اجتماعية حقيقية وحة وديناميكية ونامية ومزدهرة. والى أن يحدث ذلك سوف يستمر العالم فى تجاهلنا كقوة عالمية أرادها الله لهداية البشرية ورفع الظلم والجور اللذين تتخبط فيهما .

أما العقبة الثالثة التى تواجه قيام دولة الاسلام فتعود الى اختلافنا فى العقيدة وخروجنا عن رسالة التوحيد المستمدة من كتاب الله وسنة رسوله ، وافساح المجال للخلافات السياسية والمذاهب الفكرية ، وتحكيم العقل فيما لا قدرة له عليه ، سببا فى تفرق الأمة الاسلامية وضعفها وعجزها عن حل مشاكلها ، وبناء دولتها العالمية فبدون العقيدة لا يستطيع الاسلام أن يرسى دعائم دولته، لأن الأمور الروحانية وهى الايمان والأمور الديوية التى يمثلها العمل الصالح لا يمثلان مجالين منفصلين فى الاسلام . لأن الاتجاه الذهنى الشخصى القائم بعمل ما ، هو الذى يحدد نوعية ذلك العمل مهما كان دنيويا فى مضمونه ، ان الخلفية الذهنية ، الغائبة عن الأنظار هى التى تقرر طبيعة عمل ما فى نهاة الأمر . فيغدو

العمل دنيويا ، بل نجسا ، لو قام به فاعله بمعزل عن حقائق الايمان والعمل لنفسه سيكون دينيا روحانيا لو كانت حقائق الايمان هى التى ألهمت فاعله بالقيام به . لأن الحقيقة فى الاسلام واحدة لا تتجزأ والحقيقة هى مهما كانت الزاوية التى رأيت من خلالها(١٦) . أن هذه النقطة ذات بعد غاية فى العمق . ان اختلافنا فى العقيدة حتما سيؤدى الى اختلافنا فى العمل .

فالوحدة التى يقوم عليها العمل هو الانسان ، والانسان هو ذلك الوجود الذى نراه متحركا فى العالم الخارجى ، وهو روح حين نجده يعمل فى اطار الهدف النهائى والمثالية لما غرس فى هذه الروح من ايمان . فلو تمسكنا بعقيدتنا كأفراد وجماعات لجاء سلوكنا متفقا مع ما جاء به الاسلام من ثورة على الباطل فى كل صوره ، وعلى الفساد فى جميع مظاهره ، فقضى على الخرافات التى لوثت العقول . وعلى الانحراف الذى شوه الفطر ، كما ثار على العرف الفاسد الذى عطل حرية الفكر واستقلال الارادة . فدمر كل معالم الشر ، ومحا كل لون من ألوان الفساد واستبدل بها الحقائق التى تهدى العقل ،وتنير الضمير ، وتسمو بالنفس ، لتصل الى أقصى ما قدر لها من الكمال الانسانى ، كما استهدف تهذيب الفرد ، وتعاون الجماعة ، وايجاد نظام دولى يقوم على أسس ودعائم ثابتة من العدل والشورى والمساواة والمعاملة بالمثل والأخلاق ، وغايته حراسة دين الله وسياسة دنيا الناس ، والدعوة الى الاخوة الانسانية ، مما يعجل بسلام عام يعيش بنى البشر فى ظله فى أمان واستقرار . والاسلام لم يستهدف مصلحة ذاتية ، ولا منفعة وطنية ولا ترجيح

---

(16) Muhammad Iqbal, The Reconstruction of Religions Thought in Islam, Lahore, Ashraf 1971, p. 154.

كفـة جماعة على كفـة جماعة أخرى ، ولا ايثـار مذهب على مذهب ، وانمـا كان دعـوة عـامة لبنى البشر من أجل خيرهم ومصلحتهم جميعا.

هـذا وننـوه الى أن هـذا البحث عن الدولة فى الاسلام ، باعتباره مقـدمة لأبحاثنـا عن الدولة فى الاسـلام حيث يتطـرق الى فلسفتها وأهم العقبـات أمـام قيامهـا .

* * *

المراجـــع

العربيـــة :

١ ـ القـرآن الكـريم ٠

٢ ـ جريدة الأوبزرفر اللندنية ١٩ ديسمبر عام ١٩٧٦ ٠

٣ ـ محاضرات الدكتور حسين خلاف عن التكامل الاقتصادى (الدراسات العليـا ، كليـة الحقوق ـ جامعـة القاهرة عام ١٩٧٧) ٠

٤ ـ الدعـوة فى الاسـلام ، للمستشرق توماس أرنولد ، ترجمة الدكتور حسن ابراهيم حسن وعبد المجيد عابدين ، القاهرة ١٩٥٧ ٠

٥ ـ الرأى العـام وأثره على طريقة وضع الدساتير (للمؤلف) ٠

٦ ـ الشهرستانى : الملل والنحـل ٠ جـزء أول ص ٣٤٦ ٠

٧ ـ القـانون الدولى فى الشريعـة الاسلامية الدكتور حامد سلطان ٠

٨ ـ نظـام الاسـلام ـ الحكم والدولة ـ محمـد المبارك دار الفكـر ، ص ٢٢ ٠

اجنبيـــــة :

1. Muhammad Iqbal, The Reconstruction of Religions Thought in Islam, Lahore, Ashraf, 1971, p. 154.

2. H. J. Morgenthau, Politics Among Nations, N. Y. Knopf 1948.

3. W. J. M. Mackenzie, Politics and Social Science, London, Pel lican 1967, p. 57.

4. Kalim Siddiqui, Towards a New Destiny, London, News and Media 1974.

5. Muhammad Iqbal, The Reconstruction of Religions Thought in Islam, Lahore, Ashraf, 1971, p. 154.